

# الأسد في خزانة الكتب

## The Lion in the Books' Cupboard

Translated by  
Haseeb Shehadeh  
The University of Helsinki

في ما يلي ترجمة عربية لقصته عاطف (ليفي/لاوي) ابن الكاهن الأكبر ناجي (أبيشع، ١٩١٩-٢٠٠١)، التي رواها بالعربية العامية النابلسية، على مسامع بنيامين راضي صدقة، الذي نقلها بدوره إلى العبرية. نُشرت هذه القصة بالعبرية في الدورية السامرية أ.ب. - أخبار السامرة، عدد ١٢١١-١٢١٢، ١ نيسان ٢٠١٦، ص. ٢٥-٢٧. هذه الدورية التي تصدر مرتين شهرياً في مدينة حولون جنوبي تل أبيب، فريدة من نوعها؛ إنها تستعمل أربع لغات على الأقل بأربعة خطوط، أو أربع أبجديات: العبرية أو الآرامية السامرية بالخط العبري القديم، المعروف اليوم بالحروف السامرية؛ العبرية الحديثة بالخط المربع/الأشوري، أي الخط العبري الحالي؛ العربية بالرسم العربي؛ الإنجليزية (أحياناً لغات أخرى مثل الفرنسية والألمانية والإسبانية) بالخط اللاتيني.

بدأت هذه الدورية السامرية في الصدور منذ أواخر العام ١٩٦٩، وما زالت تصدر بانتظام، توزع مجاناً على كل بيت سامري في نابلس وحولون، قرابة الثمانمائة سامري، وهناك مشتركون فيها من الباحثين والمهتمين في الدراسات السامرية، في شتى أرجاء العالم. هذه الدورية ما زالت حية ترزق، لا بل وتتطور بفضل إخلاص ومثابرة الشقيقين بنيامين (الأمين) ويفت (حسني)، نجلي المرحوم راضي (رتسون) صدقة (٢٢ شباط ١٩٢٢-٢٠ كانون الثاني ١٩٩٠).

”عادة هناك لكل قصة من القصص التي أرويها، أساس في الكتب الجمة التي في مكتبتي، أو في ما سمعت من أبي الكاهن الأكبر، ناجي، ومن الكهنة وكبار السن المعاصرين لنا. ما يُميّزني عن كهنة آخرين، وعن حكّائين في طائفتنا الصغيرة اليوم، هو أنني أستطيع فوراً (ع لحل)، عند توفر الوقت والقدرة لديك للجلوس والاستماع، أن أقص عليك ٨٠٠ قصة مختلفة، الواحدة تلو الأخرى، ولا علم لأحد من السامريين بها، ولم يسمعها قط، أنا الوحيد الذي سمعها. هل تفهم يا سيدي؟

في الواقع، أعرف قصصاً كثيرة. أعلم أنك على عجل من أمرك، إلا أنك قطعاً، لديك بضع دقائق لسماح قصة طريفة حدثت في طائفتنا، قبل وقت طويل جداً. هذه القصة تُعيدنا إلى الجدل المعروف الدائر بيني وبينك، حول مكانة الكاهن الأكبر. هل تعلم أن هناك في تقاليدنا ١٥٦ شرطاً، على الأقل، ينبغي توفرها في شخص المرشح للكهانة الكبرى، قبل أن يتسلم هذا المنصب الرفيع؟ لا، بالتأكيد لا تعرف. لن أحصيها هنا أمامك. تعال إلى بيتي ذات يوم، لأريك كتاباً في مكتبتي، يعدد هذه الشروط.

في بؤرة القصة التي أودّ سردها عليك، يقف أحد الكهنة العظام الربّانيين من آل خضر (فنجاس)، الذين ترأسوا السامريين في فتراتهم العصيبة. إنك تعلم أنه في بداية الحكم العربي في هذه البلاد، كان للكاهن الأكبر السامري مهمة ومكانة مختلفتين جداً عما نعهده في القرون الأخيرة. كان الكاهن الأكبر الربّان، يقضي جلّ وقته في الدراسة والحفظ، وكتابة كتب في الشريعة لأبناء الطائفة، ونظم قصائد دينية وقيادة طائفته. كما وكانت له منزلة خاصة في الصلاة نفسها.

هل سمعت منّي حول التقليد المرتبط بالكاهن الأكبر من بني خضر؟ إنك تعرف أنّه في القصيدة الدينية/بيوط: "واحد هو الله المجلّ" [تقرأ شتّملاً ويميناً، لأنّها مثل بيوت مرقه وترنّم بثلاث نغمات؛ أشكر سعد/أوشر ساسوني على هذه المعلومة]، هناك بيت بالنون يستهلّ ب: نسجد ونعمل لخالقنا. ينطقون بهذه الكلمات، وينحنون انحناءً شديدة وهم جالسون. [المقصود هو العزار بن فنحاس بن يوسف الكاهن الأكبر لمدة ربع قرن من الزمان من ١٣٦٣ وحتى وفاته ١٢٨٧، معروف في سلسلة الكهنة الكبار باسم العزار السابع عشر. لأبيه مساهمة هامة ثقافية، هو الذي طلب من أبي الفتح السامري تأليف كتاب التاريخ الشهير، أخو العزار هو أبيض المصنّف (١٧٧١) المتوفى عام ١٣٧٦، وكلاهما كوالهما أبدا في نظم الشعر الديني، بيوطيم؛ أنظر: زئيف بن حاييم، عبرية وأرامية السامرة حسب وثائق مكتوبة ودليل شفوي، مج. ١، القدس: مؤسسة بياك بالاشتراك مع مجمع اللغة العبرية، ١٩٥٧، ص. ٧٥-٧٨، في الأصل بالعبرية؛ مج. ٣، كتاب ثان، ١٩٦٧، ص. ٣١٣-٣٢٨؛ أنظر: بنيامين صدقة، مختصر تاريخ الإسرائيليين السامريين منذ خروج مصر وحتى سنة ٢٠٠٠ ميلادية. حولون: معهد أ. ب. للدراسات السامرية، ٢٠٠١، ص. ٧١، في الأصل بالعبرية]. تعلم أنّه في الماضي البعيد دأب الربّان الكاهن الأكبر على الدخول إلى المذبح في الكنيس، والانحناء مع المصلّين؛ لا، ما كان يتأخّر عن الصلاة. كانت له غرفة بالقرب من الكنيس، وتّم كان يستهلّ الصلاة في نفس الوقت، مع كلّ الطائفة، وعند الوصول إلى البيت فقط "نسجد ونعمل لخالقنا"، كان يدخل الكنيس، ينحني انحناءً على المذبح بجانب الكاهن الشّمّاس/الحرّان. متى كان هذا، أنت تسأل؟ في الماضي البعيد، في عهد حكم الرومان وبداية الحكم العربي.

ماذا تقول؟ إنّ القصيدة الدينية "واحد هو الله المجلّ" قد نُظمت قبل الستمئة سنة تقريباً. وماذا في ذلك/شبو يعني؟ هذا لا يناقض ما قلتُ. الدخول بـ "نسجد ونعمل لخالقنا" تعود إلى زمن النظم، ولكن قبل ذلك كان الربّان يدخل الكنيس نحو القسم الثاني من الصلاة، الذي يستهلّ بالكلمات "فليتكأثر هذا الاسم المقدّس". وعندما بدأوا يتلون في الصلاة "واحد هو الله المجلّ"، صادف دخول الربان الكنيس عند تلاوة "نسجد ونعمل لخالقنا". هذا ما حصل!

لماذا تسأل كلّ هذه الأسئلة؟ دعنا نبدأ بالقصة حسناً، عندما وصل الخليفة عمر إلى الأراضي المقدّسة وفتحتها، كان الربّان العزار رئيس السامريين يسكن في بيت صاما [قد يكون المقصود خربة بيت صاما، ١٠ كم إلى الشمال الشرقي من طولكرم، ٣ كم شرقي كفر زيتا، المساحة حوالي 40 دونما، كانت مأهولة بالسكّان منذ الفترة الكنعانية الوسطى ولغاية الفترة العثمانية، أنظر: <http://www.kotar.co.il/kotarapp/index/Chapter.aspx?nBookID=18224547&nTocEntryID=18531467>، وأتى إليه كلّ السامريين، كما يروي المؤرّخ أبو الفتح [لم أعر على ذلك في المخطوط الذي في حوزتي]، وأدعوا ممتلكاتهم عنده، وهربوا إلى بلاد بعيدة، خوفاً من المحتلّ المسلم.

صيت الربّان العزار كرجل ذي هالة من الإجلال، لا يُعلّى عليها، كان ذاتاً في كلّ الشرق. كلّ من رآه احترامه، شخصية كلّها حكمة وذكاء، جمال وحذق في الحفاظ على المنزلة الرفيعة المتعلقة بمنصب جليل كهذا، ربّان وكاهن أكبر لطائفة السامريين العريقة. حال وصوله البلاد على رأس الجيش المسلم، توجّهت إلى قصره وفود من كل قطاعات المجتمع في البلاد، يهود ومسيحيون يتوسّلون إليه، ويقدمون إليه الهدايا، كيلا يلحق بهم الضرر في احتلاله. استقبل عمر كلّ الوفود ووعدّها بعدم إلحاق أيّ أذى برعاياها، شرط أن تحترم دين محمّد، وقانون الفتح الإسلامي. برز غياب كاهن السامريين الأكبر، الربّان، من بين رؤساء الوفود. لاحظ عمر ذلك على الفور. كان قد سمع الكثير، من يهود خبير عن السامريين في البلاد، وعن دينهم الخاصّ. كما وسمع أيضاً عن وفد سامري، استقبله محمّد، برئاسة الحكيم صرمصا أب آل القباصي. كان اسمه زهر، ولكن لأنّه خرج للقاء محمّد سمّوه بالكنية "صرمصا" [رئيس الوفد المسيحي كان الراهب بحيري، ورئيس اليهود كان كعب الأحبار، صرمصا،

كلمتان عبريتان للتمويه معناهم: عدوًا/كارهًا وجد! أنظر مثلاً سفر التثنية ٣٢: ٤١، أنظر: <https://www.youtube.com/watch?v=cZnYu3UL7Fs>؛ استعمال شبيه بذلك يتكرر كثيرًا في المخطوطات السامرية وخصوصًا في الكولوفونات هو: بتاريخ كذا وكذا "لشعوب ندس" أي دنس، أي الإسلام. ظهر النبي محمد في أواخر كهنة العزار بن عقوبن الذي كان كاهنًا أكبر مدة ست وعشرين سنة، أنظر كتاب بنيامين صدقة أنف الذكر، ص. ٥٣ وقارن ذلك بما ورد في كتابه الجديد: تاريخ الإسرائيليين السامريين حسب مصادرهم الذاتية، منذ يهوشع بن نون حتى هذا اليوم - ٢٠١٥ م. حولون: معهد أ. ب. للدراسات السامرية - جبل جريزيم - حولون، ٢٠١٦، ص. ٣٦٢، هنا يذكر أنه في آخر كهانة الكاهن الأكبر الربان العزار بن نتنئيل قام محمد نبي بني إسماعيل، وفي كتاب التاريخ لأبي الفتح السامري نجد أن نبي العرب ظهر في آخر ولاية نتنئيل بن العزار الذي كان كاهنًا أكبر ٢٥ سنة، كما ونجد هناك أن ٦٧٢ أي قمر ثم لقب ٦٧٤ ٧٤٧ ثم لقب ٦٧٤ من عسكر، والمنجم اليهودي كان كعب الأحبار، أما المسيحي الراهب فكان اسمه عبد السلام، وكلاهما أسلما بعد مقابلة محمد، أما صر مصا فبقي على دينه وردّ قائلًا: "عندي من هذا حاجتي يعنى الشريعة والدين انا متغبط فى دينى ما اقدر اتى اليك ولا اخرج من دينى فانخرج محمد منه وقال له ما خطبك يا سامرى [في الأصل: ما ... سامرى، بالحبر الأحمر] فقال له ٦٧٤ (في الأصل هنا ولاحقًا بالحروف السامرية) و فقط يا مولاي جيتك لاجل عهدًا وميثاقًا اعتمد عليه انا واهل ديني وملتي ان تكتب لي زمامًا لحفظ النفوس والدرارى والمال والوقف وينا بيوت العبادات فامر لراقم ان يكتب لهم عهدًا وامانًا وزمامًا على حكم ما دام فحضر الراقم الى بين يديه وكتب انا محمد ابن عبد المطلب امرت ان يكتب للسامره امانًا وزماميًا على انفسهم وعلى دراريهم واموالهم وبيوت عباداتهم وواقفهم في كل بلادهم وفي كل حوزهم//وان يسرى فيهم وفي زمم فلسطين بالسيرة الحسنه. [في الأصل من : انا محمد ... الحسنه، بالحبر الأحمر] فاخذه ٦٧٤ ٧٤٧ وانصرف من عنده وشار عليه عامر ابن ربيعه وعبدالله ابن جحش بان يكون كاتب الزمام علي ابن ابوطالب فعاد على ٧٧٧ وتمتل بين يديه وقال يا مولاي جيتك من بلاد وسيعه ساشعه بعيده ومن عند طايفه ومله ضعيفه قد اتلفها اهل الشرك وتسلط عليها عباد الاوتان وهم راجيين من الله تعالى الفرج على يدك وقد ارجوا ان يكون كاتب الزمام على راي على ابن ابوطالب فامر على بكتابتها فكتب لهم عنه انطيت هذا الزمام للسامره امانًا على نفوسهم ودراريهم واموالهم وبيوت عباداتهم وواقفهم في كل بلده وفي كل مكان وحوزه وان يصير فيهم بالسيرة الحسنه...، في الأصل: من انطيت ... الحسنه، بالحبر الأحمر؛ ص. ١٤٧-١٤٨ في مخطوط لتاريخ أبي الفتح السامري في حوزتي، فيه ١٦٦ صفحة، نسخها أبو الحسن ابن يعقوب الكاهن (ت. ١٩٥٩) في ١٩ جمادى الاول سنة ١٣٥٢ عربية الموافق ليوم الثلاثاء ٢٠ أيلول ١٩٣٢]. أنظر: *The Samaritan Update*, Vol. xv-No 6, July-August 2016, <http://shomron0.tripod.com/articles/threastrologers.pdf>; A. B.-The Samaritan News 1223-1224, 1/9/2016, pp. 107-116 على كل حال، تمكّن ذلك الوفد من الحصول على ميثاق/عهد أمان من محمد، يقضي بعدم إيذاء المسلمين للسامريين. فقط أولئك السامريون الذين تعاونوا مع الرومان، لا ذوا بالفرار من وجه عمر.

طبعًا كان على عمر احترام ميثاق محمد نبيّه. علم عمر أنه لا بدّ من وجود سبب ما حال دون قدوم كاهن السامريين الأكبر لاستقباله، ولكن عمر، ما كان يستخدم القوة ضد الكاهن، بسبب الميثاق. لذلك أرسل رُسلًا للكاهن الأكبر العزار لمعرفة سبب تغيبه من بين الوفود المتملقة للمحتلّ. "أخرجوا وقولوا له" - قال الكاهن الأكبر العزار - "إنّ حضرة كاهن السامريين الأكبر، موجود داخل بيته. من يريد الكاهن، فليأت إليّه. دُهِش الرُسل من جرأة كاهن السامريين، ولكن كان عليهم تبليغ عمر بالخبر كما هو. زادت دهشتهم عندما ردّ عليهم عمر قائلًا: "إذهبوا وقولوا له ليأتي إليّ، لأنني أنوي تعيينه في منصب عالٍ جدًا في البلاد، وإثراء ثراء عظيمًا". "إذهبوا وبلّغوه جوابي" - قال الكاهن الأكبر العزار لرسول عمر - "لا آتي إليه قبل أن يأتي هو إليّ. عليه أن يعلم أنه لا مكانة أسمى من كون الشخص كاهنًا أكبر، من قيل الله تعالى، ولا ثراء يفوق ثراء ما تمنحه توراة الله".

هذه المرة لم يستطع عمر كبح جماح غضبه. تمنطق بسيفه وبدون أيّ تلوّك، أسرع إلى بيت الكاهن الأكبر إعرار، وهو عازم على إنزال أشدّ عقوبة عليه بسبب 'وقاحته' إزاء وريث محمّد. عندما اقتحم عمر منزل الربّان إعرار، أحسّ على الفور أنّ لا حول له ولا قوّة، مقابل بهاء وجه الكاهن الأكبر، وجمال منظره ذكّر عمر بشخصية أخرى قدّرها كثيراً.

سمح لخدمه أن يقوده برفق ليقف مقابل مقعد الكاهن الأكبر إعرار. جلس الكاهن بجانب خزانة كتبه الكبيرة وكان يقرأ في كتاب شرائع قديم. وعند سماع جلبة دخول عمر، نهض الكاهن وأشار بيده لعمر أن يجلس مقابله. بسمّة الكاهن ونور وجهه أعادا قوى عمر، وردّ البسمّة ببسمّة.

”بما تتمثّل قوّة ممثّل الله على الأرض، كما تُقدّم نفسك؟“ - سأل عمر- ”فلا أيّ سلاح بيدك، في حين أنّني مدجّج بالسلاح من قمّة رأسي إلى أخمص قدمي. ماذا كنت تستطيع أن تفعل لو قمت الآن لأقتلك؟“. ”ماذا كنت فعلت؟“ - ابتسم الكاهن، وفي فؤاده توسّل لعون الله خالقه - ”كنتُ سأضربك بما لي في هذه الخزانة“. ”وما لديك في هذه الخزانة“ - استفسر عمر - ”يستطيع أن يرعبني؟“؛ ”سترى حالاً“ - تقدّم الكاهن إلى باب الخزانة وفتحها، وهو كعمر أيضاً ارتدّ إلى الوراء هلعاً. همّ من الخزانة أسد ضخم الجثّة بالوثوب عليهما، وزأر في اتّجاه وجه عمر. بالطبع، ما كان ذلك سوى ملاك، أرسله الله بهيئة أسد عملاق. ”أنقذني!، زعق عمر بالكاهن الأكبر. أسرع الربّان إعرار إلى باب الخزانة فأقفلها.

ركع عمر وقبّل أخمص قدمي الربّان إعرار. ”الآن علمتُ أنّك أعظم منّي“ - قال.